محاكمة أوديسيوس

د. صالح رمضان

كلية الآداب – جامعة سوهاج

تتفق المعاجم في أن البطولة هي الشجاعة الفائقة التي لا يتصف بها إلا قليل من الناس، وذلـك يعنـي أن الـبطل شـجاع يمتاز عن أقرانه الأشداء؛ لأنهم إذا ما التقوا به يضعفون وتتصـاغر شجاعتهم، أو لأنه يقتل الأقران فلا يجرؤ أحد على أن يثأر منه. إلا أن الشجاعة العظمـى لا تقتصـر في الحقيقة على ميادين الحروب، وليست من مزايا المحاربين وحدهم. فهـناك شـجاعة الجهاد السلمي لتحرير الوطن مثلاً، وشجاعة الثبات على العقيدة مهما نزل بصاحبها من عسف وإعنات، وعرض على موارد الهلاك. وعلى ذلك فإن البطولة مثلما تكون فـي مـيدان الحـرب تكون أيضًا في مجال السلام، وهناك كذلك بطولات أخرى تكون وليدة الاختيار، أو هي استجابة للفطرة الخاصة والأخلاق المتميزة والتفوق على الناس.

والسـؤال هنا هو: هل كل شجاعة فائقة تكون بطولة؟ وهل كل شجاع ممتاز يكون بطلاً من الأبطال؟

والإجابـة على هذا السؤال تكون بلا؛ ذلك أن هناك شجاعًا مغوارًا وفتاكًا يرهب الأشداء الأقوياء، ويغامر بحياته في مأزق يطل عليها الموت من كل جانب، فهل نصف هذا بالبطولة، ونسلكه في عداد الأبطال؟ فقد يتهور بعض الشجعان فيلقي بنفسه في المهالك، مدلاً بشجاعته، ولكـنه في الواقع قد لا يكون بطلاً؛ لأن مسلكه قد لا يصدر فيما يعمل عن عقيدة، ولا يتطلع إلـى مـثل أعلى جدير بالفداء. وعلى ذلك فلا بد للبطولة أو البطل من عقيدة تشربها نفسه، وتستقر في أعماق قلبه، ولا بد له من جهاد ومغالبة الهلاك، وتحد للأخطار، وإقدام يبعث على الدهشة والإعجاب؛ لحماية هذه العقيدة، وهو ما سوف نتحدث عنه بالتفصيل فيما بعد. ولا بد للـبطل من فيض في القوة الجسدية، وتفوق في القوى النفسية والخلقية، كي تتساند القوتان في تكـريس بطولته، وتوجيهه إلى التفوق والامتياز، وإذا نقصت خلة من هذه الخلال فلا بطولة ولا بطل.

وقـد تلتـبس الـبطولة بالعظمـة؛ لأن العظمـة في معناها المجازي هو العلو والتفوق والامتـياز[1]، لكن التفريق بينهما يكون ميسور المنال؛ لأن العظمة أعم من البطولة وأشمل، فكـل بطـولة عظمـة، وليس العكس. فقد يكون التفوق في قوة الجسد أو سرعة الحرب، أو البراعة في السباحة، وقد يكون في التفكير والذكاء، وقد يكون في فصاحة اللسان، وهذه كلها

---

[1] لسان العرب، مادة عظم. قارن أيضًا في الإنجليزية: The Concise Oxford Dictionary: (great)

ألوان من العظمة، لكنها ليست بالطبع من ضروب البطولة، وذلك لكون البطولة شجاعة نادرة تتحدى الأخطار دفاعًا عن عقيدة مفداة، إلا أنه يمكن وصف البطولة بالعظمة، وكذلك وصف البطل بالعظيم، بل يمكن إطلاق كلمة عظيم على البطل، لأن العظمة واسعة النطاق تشمل أنواعًا من ضروب التفوق والامتياز.

ويصح أن تتشابه البطولة مع العبقرية؛ لأن العبقرية في كثير من الأحيان تكون وثيقة الصلة بأهل الخوارق والقدرة على ما يعجز عنه البشر. لكن هذا التشابه لا يلبث أن يزول إذا ما لاحظنا العبقرية في أكثر الإطلاق ذات دلالة على المواهب العقلية والقدرة الخارقة على التفكير والإنتاج[٢]. ومن هنا نعلم أن الشخص قد يكون عبقريًا، ولكنه ليس بالبطل؛ لأنه ربما يمتاز في تفكيره أو في إنتاجه أو في ابتداعه بضعف العزيمة أو الجبن، أو قد يمتاز بأنه لا يعرض نفسه للمخاطر حمايةً لعقيدة، على أن البطل قد يجمع إلى البطولة العبقرية؛ لأنه يكون مزودًا بعدد البطولة كلها، ومزودًا أيضًا بتفوق في التفكير على نحو من الأنحاء.

وفي إلياذة هوميروس تنبع فكرة البطل[٣]النقية البسيطة من كون البطل هو الشخص الذي يقدم الشرف والمجد على الحياة، ويفضل الموت في ساحة القتال وهو في ريعان شبابه[٤]. وعلى الرغم مما يقوله أخيلليوس في لحظة عصيبة عن الاختيار بين الحياة القصيرة المجيدة وتلك الطويلة الخامضة، فإن اختياره الحقيقي يتم عندما تحذره والدته ثيتيس (Thetis) من أن موت هيكتور سوف يكون مقدمةً لموته هو، إلا أنه يفضل أن يقتل هيكتور ويموت هو ذاته على أن يترك مقتل صديقه باتروكلوس (Patroclus) دون انتقام[٥]. وكذلك يتصرف هيكتور بطريقة مماثلة إذ يختار الشرف على الحياة، فيبقى خارج أسوار طروادة ليلقي حتفه على يدي أخيلليوس[٦].

إن مئات من محاربي الإلياذة الأقل بريقًا وسطوعًا عن أخيلليوس يختارون نفس المسار على نحو أقل استعراضًا، وذلك من خلال الحقيقة القائلة بأنهم قد تطوعوا بالمجيء إلى طروادة لكي يكسبوا المجد في الحرب، وهذا يعدو حقيقة طبقًا لما نراه من سيمويسيوس

---

(٢) راجع: د. أحمد محمد الحوفي، البطولة والأبطال، مكتبة نهضة مصر، الفجالة- مصر، ١٩٥٧م، ص ص ٩- ١٤.

(٣) G. Nagy, The Best of The Achaeans, Baltimore and London, 1979, pp. 114ff.

(٤) انظر: J. Griffin, Homer on Life and Death, Oxford, 1980, pp. 81ff. S.L. Schein, The Mortal Hero, Barkeley, 1984, pp. 67ff. M.W. Edwards, Homer, The Poet of the Iliad, Baltimore and London, 1987, pp. 149ff.

(٥) IL. 9. 406- 20; 15. 94- 126.

(٦) IL. 22. 90 – 130; cf. 6. 440- 65.

(Simoeisios) الصـغير، الذي جاء إلى طروادة قبل أن يختار زوجةً له، ويشعر كأنه "خشبة حـور سـوداء" فـي يـدي إياس (Ajax). والأمر نفسه فيما يتعلق بليكاون (Lycaon) ابن بـرياموس (Priamus) الذي هرب من أريسبي (Arisbe) القريبة حيث كان قد تم الاحتفاظ به في مأمن من المكاره،إلا أنه يعود إلى أرض المعركة ليكون الموت نهايته المحتومة[٧].

وهـذا المـنهاج الـذي ينـتهجه محاربو الإلياذة يتمثل في الكلمات التالية من ساربيدون (Sarpedon) إلى جلاوكوس (Glaucus) على هذا النحو:

ὦ πέπον, εἰ μὲν γὰρ πόλεμον περὶ τόνδε φυγόντε
αἰεὶ δὴ μέλλοιμεν ἀγήρω τ' ἀθανάτω τε
ἔσσεσθ', οὔτε κεν αὐτὸς ἐνὶ πρώτοισι μαχοίμην
οὔτε κε σὲ στέλλοιμι μάχην ἐς κυδιάνειραν·
νῦν δ' ἔμπης γὰρ κῆρες ἐφεστᾶσιν θανάτοιο
μυρίαι, ἃς οὐκ ἔστι φυγεῖν βροτὸν οὐδ' ὑπαλύξαι,
ἴομεν, ἠέ τῳ εὖχος ὀρέξομεν, ἠέ τις ἡμῖν."

"آه، يا صديقي، لو أن الهرب من هذه المعركة
سوف يجعلنا نعيش للأبد ونصبح خالدين،
ما كنت لأحارب في الصفوف الأولى،
وما كنت لأرسلك إلى الحرب التي تجلب المجد للرجال،
لكن الآن ولأن عشرة آلاف من حالات الموت تحيط بنا على نحو مؤكد،
وهؤلاء البشر ربما لا يهربون منها أو يتجنبونها.
فالآن دعنا نمضي قدمًا للحرب، سواء كنا سنمنح المجد لرجال آخرين
أو أن الآخرين سوف يمنحونه لنا" [٨].

ولـيس مـن ثمة شك أن هذا النموذج لا ينطبق على أوديسيوس صاحب الأوديسية، ففي الحقـيقة إن بقـاءه حيًا بعد الحرب كان بعيدًا جدًا عن كونه مسألة اختياره الشخصي، فهو لم يتملص من المخاطرة بحياته في أرض المعركة، والأبيات التالية تُعد أحسن دليل على ذلك، إذ تقول:

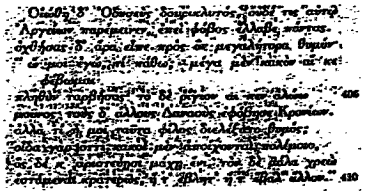

أما أوديسيوس المشهور بقوة رمحه، فظل وحده، إذ لم يبق
معه أحد من الأرجيين، فقد سيطر الخوف عليهم جميعًا
وبقلب جريح ناجى روحه النبيلة قائلاً:

(٧) IL. 4. 473- 89. 21- 34- 114.

(٨) قارن أيضًا: IL. 6. 487- 9. IL. 12. 322- 8.

وبقلب جريح ناجى روحه النبيلة قائلاً:
"آه لي، ماذا أصابني؟ سوف تكون فضيحة كبرى إذا
هربت خوفًا من بعض الرعاع، لكن لو هزمت وأنا وحيد
فسوف يكون الأمر أسوأ. لقد جعل ابن كرونوس الدنائيين الآخرين
يفرون، ولكن لماذا يحدثني قلبي الحبيب بهذه الأشياء؟
إنني أعرف جيدًا أن الجبناء فقط هم الذين يهربون من القتال،
ولكن المقاتل الشجاع هو الذي يصمد
في الحرب بقوة سواء انتصر أو هزم" (٩).

كما أن أوديسيوس لم يتحدَّ دستور السلوك الخاص بتفضيل الحياة البطولية على الموت المجيد. لقد كان هناك شيء يفوق كل ظروف حياة أوديسيوس ذلك الذي حدد بقاءه حيًا بدلاً من أن يموت صغيرًا. والحقيقة من ناحية أخرى تكمن في أن هذه الظروف قد عرضته لتجارب الحياة التي يكون أي رد فعل بطولي عليها في غير محله، وذلك بسبب عدم وجود طريقة نستطيع بها أن نعلل سلوك أوديسيوس خلال الأوديسية بأنه سلوك بطولي بلغة الإلياذة.

وفيما يلي سوف نحاول إيضاح أن الأوديسية لم تكن تختلف فقط في موقف بطلها عن موقف أبطال الإلياذة، ولكن أيضًا أن هذه القصيدة تتبع من فكرة مختلفة عن فكرة البطل الموجودة في الإلياذة.

إنه ليمكننا القول: إن وجود مظاهر غير بطولية في شخصية أوديسيوس الهوميرية قد تم ملاحظته منذ زمن بعيد، ومنذ زمن المعلقين القدامى، حيث أصبح من العادة تفسير هذه المظاهر تفسيرًا خاطئًا، وذلك من خلال نسبها إلى (ἡ μῆτις) الخاصة بأوديسيوس وهي الدهاء على عكس الـ (ἡ βία) وهي "القوة الجسدية" لبعض الأبطال الهوميريين، ويأتي على رأسهم أخيليوس(١٠).

ومن ناحية أخرى، فهناك أيضًا العديد من أوجه الاختلاف بين بطلي الملحمتين تتجاوزها في حدودها هاتين الميزتين.

إن خاصية الـ (ἡ μῆτις) لا تنال من شخصية أوديسيوس الهوميرية، وذلك ما أوضحه (W.B.Stanford) الذي أشار في دراسته إلى أن هوميروس قد نجح بمهارة في

(٩) IL. 11. 401- 10.
(١٠) Nagy, Op. Cit., pp. 42ff.

تمييز أوديسيوس من خلال تحريفات بسيطة في النظرية الخاصة بالبطولة[١١]. وفي هذا الصدد تبدو المظاهر التالية ذات أهمية خاصة:

أولاً- أن أوديســيوس هو البطل الوحيد الذي قُدم في كل من الإلياذة والأوديسية على أنه يهــتم بالطعــام، ويــناقش هذه القضية بوضوح قائلاً: إنه لا يوجد بطل آخر في القصيدتين الهوميريتين لديه "شهوة الطعام"، ويرى من خلال ذلك أن أوديسيوس بطل غير نموذجي[١٢].

وعــلاوة على ذلك نجد أن أوديسيوس في هذا الصدد يقارن مباشرةً بأخيلليوس وذلك في النقاش الذي دار بينهما حول الطعام في الإلياذة[١٣].

ثانــيًا- أن أوديســيوس هــو الــبطل الآخي الوحيد ذو الأهمية الذي وصف في الإلياذة والأوديســية بأنــه يســتخدم القوس "غير البطولي"، وليس الرمح الذي هو السلاح النموذجي للأبطال الآخرين.

ثالــثًا- أوديسيوس هو البطل الهوميري الوحيد في كل من الإلياذة والأوديسية الذي يحمل اسم (πολύτλας) أي "شديد المثابرة" [١٤]، والذي يوصف بشكل منتظم في الأوديسية فقط علــى أنه مر بمراحل من الذل والهوان، ذلك أن إياكس أو أخيليوس لم تكن لديهما النية في خــوض تجارب أوديسيوس الذي خاض ثلاث مغامرات قام فيها بدور شحاذ، وكذلك هروبه المخزي من كهف الكيكلوبس عن طريق التعلق بمعدة خروف[١٥].

إن تلك الخصائص وغيرها تجعل من أوديسيوس شخصيةً متفردةً تمامًا في الملاحم كبطل نموذجي دون تفوق. وهذا بالطبع لا يقودنا إلى أن نقول بأن التراث الإغريقي ككل لا يحوي مواضع يمكن أن يوجد فيها بطل كهذا.

ومــثلما تقــول (Margalit Finkelberg) [١٦]: إن تجارب حياة أوديسيوس قد عرفت بكلمــة (ἄεθλος) "الكفــاح" ســت مرات في الأوديسية. وفي كل من أعمال هوميروس والإغــريق عامــة نجــد أن هذه الكلمة جاءت بعد هوميروس ἄθλος ومشابهاتها لها من المعانــي اثنــين: "مناضــل قوي"، و"عامل"، والمعنى الثاني يضرب به المثل كأحسن صورة

---

(١١) W.B. Stanford, The Ulysses Theme², Oxford, 1963, p. 66.

(١٢) Ibid., p. 69.

(١٣) IL. 19. 154- 83; 198- 237.

(١٤) Stanford, Loc. Cit.; Cf. also J. Griffin, Homer, the Odyssey, Cambridge, 1987, pp. 93 ff.

(١٥) Od. 1.18; 4- 170, 241; 23- 248, 261, 350.

(١٦) Margalit Finkelberg, Odysseus and the Genus (Hero), Greece & Rome, Vol. Xlii, No. 1, April 1995, pp. 1- 12.

لأعمـــال هيراقليس، والفارق في المعنيين، بينما هو محدد في الـــ Homeric Lexion of Ebeling والـــذي يـــدور بـــين (Ludus) التي تعني "رياضة"، و(Certamen) التي تعني "كفـــاح"، من ناحية، و(Contentio) التي تعني "جهد وكفاح"، و (Labor) التي تعني "عمل وجهـــد"، و(Aerumna) التي تعني "عمل- كفاح"، من الناحية الأخرى، يعد غامضًا في الـــ (Liddel- Scott- Johnes Lexicon) بسبب الميل إلى تصنيف كل استعمالات الكلمة تحت معنى "الكفاح".

كمـــا أنـــنا نجد من ناحية أخرى أن الحقيقة تكمن في أن هذا التفسير أو هذه الترجمة لا تتجاهل فقط قرابة الصلة الدلالية غير المتنازع عليها بين (ἆθλος) و (ἄεθλος) والصفة (αθλιος) والتـــي تعنـــي "الشرير" أو "البائس"، لكنها تفشل أيضًا في أن تعطي مبررًا لكل اســـتعمالات المصطلح في أعمال هوميروس والأدباء المحدثين. وهذا من الممكن استبيانه من الأمثلة التالية:

ففـــي رثاء أندروماخي لهيكتور في الإلياذة (الكتاب الرابع والعشرون) تصف ما يمكن أن يكون قد حدث لأستياناكس (Astyanax) الصغير بعد سقوط طروادة بقولها:

σὺ δ' αὖ, τέκος, ἦ ἐμοὶ αὐτῇ
ἕψεαι, ἔνθα κεν ἔργα ἀεικέα ἐργάζοιο,
ἀθλεύων πρὸ ἄνακτος ἀμειλίχου,

"وأنت أيضًا، يا بني، سوف تذهب معي
إلى مكان حيث تقوم بأداء أعمال غير ملائمة
كادحًا أمام عيني سيد، غليظ القلب" (١٧).

إن ترجمة (ἀθλεύων) في الـــ (L.S.J. Lexicon) تعني "الكدح"، أو "المعاناة"، تعد غيـــر مرضية، فالترجمة "كدح" تنشأ من محاولة إصلاح الاستخدام الهومري المرادف للمعنى الآخـــر الأكثر انتشارًا، وهو "النضال"، والذي لا يتوافق مع النص، بينما تبدو الترجمة وهي "الكدح" أو "المعاناة" ضعيفة جدًا بالنظر إلى نوع التجربة المتضمنة.

وهـــذا يتضـــح أيضًا من المقارنة مع الاستخدام الآخر لأصل الكلمة في الإلياذة (الكتاب الســـابع)؛ حـــين يشـــكو بوسيدون إلى زيوس من أن الحائط الذي بناه الآخيون سوف يجعل الرجال ينسون الحائط الذي بناه هو وأبوللون خلال خدمته للاوميدون، إذ يقول:

τοὔνεκ' ἐπιλήσονται ὀ τ' ἐγὼ καὶ Φοῖβος Ἀπόλλων
ἠρῴω Λαομέδοντι πολισσάμενοι πολίηδε.

(١٧) IL. 24. 732- 4.

"والرجال سوف ينسون الحائط الذي بنيناه
أنا وأبوللون فويدوس بكدحنا ἀθλήσαντε
من أجل البطل المحارب لاوميدون" (١٨).

ومرةً أخرى نجد أن ترجمة (L.S.J. Lexicon) التي تتصل بكلمة (ἀθλήσαντε) لا تصـــيب الهـــدف(١٩)، وهذا يتضح أيضًا في كلمات بوسيدون إلى أبوللون في الإلياذة (الكتاب الـــواحد والعشرون)؛ حيث نجد نفس التجربة التي يفسرها الفعل (θητεύσαμεν) "لقد كنا خدمًا أو عاملين" على هذا النحو:

οὐδέ νυ τῶν περ
μέμνηαι, ὅσα δὴ πάθομεν κακὰ Ἴλιον ἀμφὶ
μοῦνοι νῶϊ θεῶν, ὅτ' ἀγήνορι Λαομέδοντι
πὰρ Διὸς ἐλθόντες θητεύσαμεν εἰς ἐνιαυτὸν
μισθῷ ἔπι ῥητῷ· ὁ δὲ σημαίνων ἐπέτελλεν. 445

"ألقد نسيت كل المتاعب التي تكبدناها نحن الاثنان
فقط من دون الآلهة في اليوس عندما
أتينا بأمر زيوس إلى لاوميدون المغرور
وخدمناه (θητεύσαμεν) خلال عام
نظير أجر معين قد فرضه، ولقد تكبدنا
أوامره" (٢٠).

وهذه الأمثلة تتمشى مع تعريف الأوديسية لعمل هيراقليس مثلما يقول هو ذاته:

Ζηνὸς μὲν πάις ἦα Κρονίονος, αὐτὰρ ὀιζὺν
εἶχον ἀπειρεσίην· μάλα γὰρ πολὺ χείρονι φωτὶ
δεδμήμην, ὁ δέ μοι χαλεποὺς ἐπετέλλετ' ἀέθλους.

"لقد كنت ابنًا لزيوس بن كرونوس، ومع ذلك
تكبدت متاعب فوق الحصر، لأنني خضعت لرجل
أسوأ مني، ولقد كلفني بأعمال شاقة (ἀέθλους)" (٢١).

وطالما أنه يوجد هنا كفاح، فهو كفاح من أجل البقاء، وطالما أنه توجد معاناة، فهي معاناة تتضـــمن إذلالاً. وكمـــا وضـــح لـــنا (Gregory Nagy) أن الصـــلة الدلالـــية الكامنة بين

(١٨) IL. 7. 452- 3.
(١٩) انظر: Liddel- Scott- Johnes Lexicon S.V. ἀθλεω
(٢٠) IL- 21. 441- 5.
(٢١) Od. 11. 620- 2.

(ἄεθλος) التي تعني "الكفاح"، واللـ (ἄεθλος) التي تعني "العمل" تعد في أوضح صورها في قول بنداريوس: في الأسلوب المتوارث لشعر المديح، نجد أن ما يمر به البطل الرياضي في سعيه وراء النصر تشير إليه كلمة (πόνος) وتعني "المحنة"، وأيضًا كانت تسمى (κάματος) أي "كدح ومحنة"، ونفس هذه الكلمات تنطبق أيضًا على صراع الحياة والموت بين الأبطال وأعدائهم، وكذلك بين الإنسان والوحوش. وهناك موقف مماثل للمرادف (ἄεθλος)، والذي اشتقت منه كلمة (ἀθλητής) التي تعني "الرياضي"، هذا بالإضافة إلى أنه يعني "النضال"، فكلمة (ἄεθλος) التي تعني "المحنة والكفاح" من الممكن تطبيقها على الحالة الرياضية للبطل الرياضي، وكذلك أيضًا على كفاح الحياة والموت بالنسبة للبطل في الماضي[٢٢].

ومثلما تقول (Margalit Finkelberg) بأن البطل الوحيد بالإضافة إلى أوديسيوس والذي يمكن أن ينطبق عليه مصطلح (ἄεθλος) في الملاحم على نحو متناغم هو هيراقليس، كما نلاحظ في الواقع أنه من بين الخمس عشرة استخدام ملحمي لكلمة (ἄεθλος) ومشابهاتها والتي تعني "العمل"، كما سجل ذلك (Ebeling)، نجد أن ستة تتعلق بتجارب حياة أوديسيوس، وخمسة تتعلق بهيراقليس[٢٣].

وفي المذهب البطولي للإلياذة يمكن أن نرى هيراقليس يبرهن على أنه غير نمطي، مثل أوديسيوس في الأوديسية. وعلاوةً على ذلك، فمن الممكن أن نرى أن المظاهر المميزة لهذا البطل تتماثل بالضبط مع خصائص أوديسيوس. كما أوضحنا من قبل، فاتجاه هيراقليس نحو الطعام ليس بأقل وضوحًا من اتجاه أوديسيوس، كما أن القوس يعد واحدًا من أدواته المتواجدة معه باستمرار، هذا بالإضافة إلى أن تجارب حياته كلها توضح أنه عرف كثيرًا من التنازلات والتسويات، كما أنه كان معرضًا بشكل مستمر للإذلال، مثلما يمكن أن تشير خدمته ليورسثيوس (Eurystheus)، وكذلك كونه عبدًا للملكة أومفالي (Omphale) الليدية، إلا أن تحمله كان يفوق قدرة أوديسيوس على التحمل[٢٤].

إن لقاء أوديسيوس مع هيراقليس في العالم السفلي يتضح منه أن ذلك لم يكن مجرد صدفة، ذلك أن هذين الشخصين هما البطلان الوحيدان المميزان في الملحمة بكلمة (ἄεθλος)، وكما يقول (A. Heubeck): إن النزول إلى العالم السفلي قد ذكر على نحو

---

(٢٢) G. Nagy, "Early Greek Views of Poets and Poetry" in G.A. Kennedy (ed.), the Cambridge History of Literary Criticism Cambridge, 1989, p. 12.

(٢٣) Margalit Finkelberg, Loc. Cit.

(٢٤) IL. 8. 363; 15.30; 19. 133; Od. 11. 622, 624.

متعمد كمثال على الـ (ἄεθλοι) وهو عمل يشترك فيه البطلان، وهو يعد أحد أهم وأخطر الأعمال التي قاما أيضًا بها[٢٥].

ففي الكلمات التي يحيي بها هيراقليس أوديسيوس عند لقائهما في العالم السفلي:

Διογενὲς Λαερτιάδη, πολυμήχαν' Ὀδυσσεῦ,
ἦ δειλή; ἦ πού σε καὶὼ μόρσιμον ἔμμεναι
ὃν περ ἐγὼν ὑπέτλην ὑπ' οὐδὲν ἠέλιον.

"يابن لايرتيس، يا من انت من نسل زيوس، يا أوديسيوس
الداهية: آه! أيها الشرير، ألا تحيا مثل هذه
الحياة من القدر الشرير، كما تحملت أنا تحت أشعة الشمس؟" [٢٦].

نجـد أنه ليس هناك من شك أن هذا الخطاب بعبارته التوكيدية "وأنت أيضًا" (καὶ σύ) قد تم إلقاؤه تلقائيًا على أنه إدراك رسمي لأوديسيوس كبطل من نفس طراز هيراقليس ذاته.

لـذا نجد أنه ليس فقط أوديسيوس بل أيضًا هيراقليس الذي يمكن أن يعد بطلاً من خلال الـتفوق، إلا أنه لا يمكن اعتباره على هذا النحو بمعايير الإلياذة. ولكن هيراقليس يعد الممثل الـدائم فقط لهذه النوعية من أبطال التراث اليوناني مثل بيرسيوس (Perseus) وبيلليروفون (Bellerophon) وجاســون (Jason) وثيســيوس (Theseus) وآخرين يعدون في الغالب بـارزين مـن خلال الأعمال التي أدوها. كماأنه لا أحد من هؤلاء الأبطال قد مات في أرض المعـركة. وهـذا يرد على السؤال المتعلق بالأسباب التي من الممكن أن ينظر إلى المرء من خلالها على أنه بطل.

وطـبقًا للتصـنيف المقـبول على نطاق واسع، والذي قام به (L.R. Farnell) فمن بين هؤلاء الذين تلقوا هذا الشرف من الممكن استبيان المجموعات التالية: فهناك أبطال من أصول الهية أو أنصـاف آلهة، مثل تروفونيوس (Trophonius) ولينوس (Linus) وإينوليوكوثيا (Inoleucothea). وهـناك أبطال مقدسين مثل إينياس (Aineias) وإفيجينيا (Iphigenia) وأمفـياراوس (Amphiaraus). وهـناك أيضًا أبطال موظفين الذين لا تعني أسماؤهم شيئًا سوى ألقاب محبوبة. وهناك أيضًا هيراقليس والديوسكوريون وإسكليبيوس الذين يؤخذ كل منهم

---

(٢٥) A. Heubeck and A. Hoekstra, A Commentary on Homer's Odyessey II, Oxford, 1989, p. 116. G. K. Galinsky, The Heracles Theme, Oxford, 1972, pp. 132f.

(٢٦) Od. 11- 617- 19.

كنوع بذاته. ثمَّ أبطال الملحمة الهوميرية، وأخيرًا الشخصيات التاريخية الذين أصبحوا موضوعات لعبادة البطل[٢٧].

وإنه لمن الصعب استبيان ما هي المظاهر المشتركة التي يمكن أن تكون قد تواجدت في هذه الشخصيات المختلفة حتى نحيلهم إلى مرتبة معينة على نحو واضح. ومن غير المدهش أن تكون المحاولة الوحيدة للوصول إلى تعريف يعلل كل حالات البطولة الإغريقية هي تلك التي تعد متطابقة مع ملحوظة (Walter Burkert) القائلة: "إنه تميز غير عادي ذلك الذي يصنع البطل: أمر لا يمكن التنبؤ به، شيء خارق للطبيعة، ودائمًا موجود، بينما نجد أن قاموس (Oxford Classical Dictionary) يعرف عبادة البطل على أنها تقديس لما هو أعلى من البشر من الرجال والنساء، الذين يستحقون الذكر، سواء كانوا حقيقيين أم خياليين، وسواء كانوا في قبورهم على نحو طبيعي، أو كان من المفترض أن يكونوا كذلك" [٢٨].

ويبدو من الناحية الأخرى أن القدماء قد امتلكوا مفهومًا أكثر ترابطًا عن البطولة مثلما يمكن أن نرى على سبيل المثال، عند ديودوروس الصقلي، الذي يقول:

-{θνητῶν πόνων ἀντικαταλλάξασθαι τὴν ἀθάνατον εὐφημίαν}.

"إنه لشيء ممتاز .. أن تتلقى في مقابل الأعمال البشرية سمعةً أبدية".

ويضيف أنه في حالة هيراقليس، على سبيل المثال، فمن المتفق عليه، على نحو عام، أنه كان قد خضع خلال الوقت الذي قضاه بين الرجال إلى أعمال شاقة ومتواصلة، وأخطار عن طيب نفس من أجل أن يجني المنافع لجنس الرجال، وبالتالي يفوز بالأبدية.ومثال ذلك كانت حالة العديد من الرجال العظام والطيبين، البعض منهم قد توصل إلى الشرف البطولي، والبعض الآخر إلى شرف يتساوى مع الآلهة[٢٩].

وفي مناسبات أخرى يذكر ديودوروس حرب بيرسيوس (Perseus) ضد الجورجونيين على أنه أعظم أعماله (Τελέσαι μέγιστον ἆθλον) [٣٠]. وكذلك أعمال ياسون (Jason) الذي طالما لاحظ أنه من بين رجال العصور القديمة وآخرين معينين قد حظوا بالمجد الأبدي، وذلك من خلال الحملات التي كانوا قد شنوها على الأراضي الغريبة، وكذلك الكدح الذي تضمن الأعمال التي قاموا بها، فنجده يقول:

---

(٢٧) W.K.C. Guthrie, The Greek and their Gods, Boston, 1954, pp. 221f. E. Rohde, Phyche I, Tubingen, 1921, pp. 148ff.

(٢٨) Walter Burkert, Greek Religion, Cambridge, Mass, 1985, p. 208.

(٢٩) Diod. Sic. Bibliotheca historica, Book 1. 2. 4; cf. 4.1.4-6.

(٣٠) Diod. Sic. Bibl. Hist. 3.52.4.

(διὰ τὰς ὑπερορίους στρατείας
καὶ τὸ παράβολον τῶν ἄθλων δόξης ἀειμνήστου τετυχότας),

ولقد كان شغوفًا باتباع الأمثلة التي ضربوها" [٣١].

ومرة أخرى هيراقليس الذي:

(τοῖς ἰδίοις πόνοις ἐξημερῶσαι τὴν οἰκουμένην)

"من خلال أعماله قد استصلح هذا العالم المسكون" [٣٢].

وكما أشارت دلائل ديودوروس فإن العصر المتأخر وكذلك الهيللينستي يستحقان منا انتباهًا خاصًا، ذلك أنهما يركزان بشكل واضح وموجز على العناصر الأكثر تبكيرًا. كما أننا نجد أن فكرة العمل والمعاناة تجلبان معهما أعلى المكافآت، والتي تعد موجودة أيضًا في مثل هذه الكلمات لبنداريوس، وذلك على النحو التالي: "لو أن هناك بعضًا من السعادة (ὄλβος) بين الرجال، فلا يبدو أنها جاءت دون مجهود أو لولا المجهود المضني لما فاز هذا النوع من النصر الذي يلقي بالضوء على حياتهم وكل الأفعال التي قاموا بها" [٣٣].

إن الأبطال الذين يحتفي بنداريوس بالـ (ἀεθλοι) الخاص بهم، هم أنفسهم الذين ذكرهم ديودوروس وهم بيرسيوس وياسون وهيراقليس[٣٤]. وفي أعمال سوفوكليس فيلوكتيتيس والتراخينيات يقدم هيراقليس على أنه شخص قد عانى من أجل نفع اليونان كلها، وأن مجهوداته قد أهلته لوضع إلهي[٣٥].

إن النظر إلى تحمل العمل والكدح على أنه لا ينفصل عن مهمة البطل ينتج عنه تلك الحقيقة القائلة إن سقراط قد تم تقديمه في عمل أفلاطون "الدفاع" وهو يصف مهمته بلغة العمل والكدح: "لقد توجب عليّ أن أصف لكم جولاتي المشابهة لجولات شخص يتحمل العناء"[٣٦].

وفي وصف هيرودوتوس للعبادة السيكونية الخاصة بادراستوس (Adrastus) يقدم لنا ما يبدو دليلاً مباشرًا على فكرة العمل والعناء وعبادة البطل، التي ربما نشعر أنها متصلة على نحو متبادل، وذلك على النحو التالي:

---

(٣١) Diod. Sic. Bibl. Hist. 4.40.2.

(٣٢) Diod. Sic. Bibl. Hist. 4.8.5; cf. 4.11.1.

(٣٣) Pyth. 12. 28- 9 and OL. 10. 22- 3.

(٣٤) Isthm. 6. 48 (Heracles); Pyth 4. 220, 165 (Jason); Pyth. 10. 29ff (Perseus)

وانظر أيضًا:

G. Nagy, Pindar's Homer, Baltimore and London, 1990, p. 138.

(٣٥) Soph. Trach. 1011- 3; Phil. 1419- 20; Cf. Eur. H. F. 1252; 1309- 10.

(٣٦) Ap. 22a 6- 7.

وفي وصف هيرودوتوس للعبادة السيكونية الخاصة بادراستوس (Adrastus) يقدم لنا ما يبدو دليلاً مباشرًا على فكرة العمل والعناء وعبادة البطل، التي ربما نشعر أنها متصلة على نحو متبادل، وذلك على النحو التالي:

Τά
τε δὴ ἄλλα οἱ Σικυώνιοι ἐτίμων τὸν Ἄδρηστον καὶ δὴ πρὸς
τὰ πάθεα αὐτοῦ τραγικοῖσι χοροῖσι ἐγέραιρον.

"إلى جانب أشياء أخرى فقد تعود السيكونيون أن يشرفوا
أدراستوس بجوقة مأساوية بسبب معاناته" (٣٧).

ومن ناحية أخرى فإن عمل سوفوكليس "أوديب في كولونوس" يقدم لنا وصفًا حيويًا عن كيفية أن الرجل الذي يتحمل المعاناة الشديدة خلال حياته المديدة يصبح في النهاية بطلاً مباركًا(٣٨)، كما أن ما قدمه في كل من التراخينيات، وفيلوكتيتس فيما يختص بهيراقليس يشير إلى نفس المصير.

وبالنظر إلى تجارب أوديسيوس في الأوديسية، نجد أنه ليس هناك ثمة شيء غير عادي في تلك الحقيقة القائلة أن مصطلح "العمل" (ἄεθλος) يتضمن معنى المعاناة والجهد والكدح، وأن ذلك يستوجب أن يتعلق من وقت لآخر ببطل القصيدة، ومن ناحية أخرى، فإن تطبيق هذا المصطلح على أوديسيوس ليوضح دون أدنى شك أن ارتباط اوديسيوس بالـ (ἄεθλοι) كان مقصودًا، ولنعد إلى الأبيات التالية من التصدير:

ἀλλ' ὅτε δὴ ἔτος ἦλθε περιπλομένων ἐνιαυτῶν,
– τῷ οἱ ἐπεκλώσαντο θεοὶ οἰκόνδε νέεσθαι
εἰς Ἰθάκην, οὐδ' ἔνθα πεφυγμένος ἦεν ἀέθλων
– καὶ μετὰ οἷσι φίλοισι.

"لكن عندما جاء العام بفصوله، حيث قضت الآلهة
بوجوب أن يعود إلى وطنه إيثاكا، حتى كان هناك، لم يكن قد
تحرر بعد من العناء. οὐδ' ἔνθα πεφυγμένος ἦεν ἀέθλων
حتى وسط عشيرته" (٣٩).

وعند هذه اللحظة كان أوديسيوس مع كاليبسو في أوجيجيا بعد أن فقد رفاقه، وكانت فايكيا هي المحطة الوحيدة الباقية في طريقه إلى إيثاكا، وليس هناك من شك أنه بينما كانت المتاعب

(٣٧) Hdt. 5. 67. 5.
(٣٨) Soph. O. C. 563- 64.
(٣٩) Od. 1. 16- 19.

الســـابقة التي أشار إليها هذا البيت من الشعر تشير إلى مغامرات أوديسيوس في البحر، وذلك من خلال الحديث عن "معاناة" أوديسيوس، فيبدو أن الشاعر قد قصد أيضًا تجارب أوديسيوس كشحاذ في وطنه(٤٠).

وليس هناك من داعٍ لأن نقول أن أوديسيوس وجولاته لا يجب أن ينظر إليها بنفس القدر، وهذا ما يمكن أن نلمسه في كلمات أوديسيوس إلى بينيلوبي على هذا النحو:

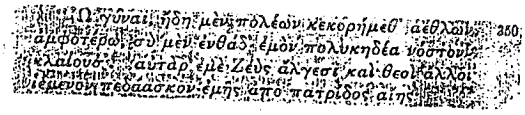

"يا زوجتي، لقد كابدنا العديد من المعاناة، أنا وأنتِ،
أنتِ في بكاءك هنا وتوقك إلى عودتي المحفوفة بالمتاعب، وأنا
بينما كان زيوس وباقي الآلهة يقيدونني بالمآسي بقيود صعبة،
بعيدًا عن وطني، على الرغم من اشتياقي إلى العودة لبلادي" (٤١).

وهـــذا بالطـــبع لا يمـــثل كـــل القضية، ففي الأوديسية (الكتاب الرابع) يمتد مصطلح الـــ (αεθλος) إلـــى مـــا وراء تجربة أوديسيوس من خلال الحرب ذاتها على نحو عام، كما هو فـــي الكتاب الرابع سطر ١٧٠ (πολεας εμογησεν αεθλους) وبخاصة في تساؤل هيليني عن كيفية اقتحام أوديسيوس لطروادة، وهو متخفٍ في هيئة شحاذ(٤٢).

إن تجـــربة أوديسيوس بكاملها منذ قتاله في طروادة حتى عودته إلى إيثاكى تأتي موصوفة فـــي القصيدة بشكل متناغم على أنها تسير في إطار الـــ (αεθλοι) إلا أنها تأتي في الكتاب الـــثالث والعشـــرين مـــن الأوديسية موضحةً على نحو خاص، فالحرب قد وضعت أوزارها، وكـــذلك الجـــولات، وحتـــى النضال من أجل إعادة تثبيت نفسه في وطنه، كل ذلك يأتي فوق قدرات بطل الأوديسية، ولكن ماذا عن قول أوديسيوس لبنيلوبي فور تجمعهم السعيد؟

ὦ γύναι, οὐ γάρ πω πάντων ἐπὶ πείρατ' ἀέθλων
ἤλθομεν, ἀλλ' ἔτ' ὄπισθεν ἀμέτρητος πόνος ἔσται,
πολλὸς καὶ χαλεπός, τὸν ἐμὲ χρὴ πάντα τελέσσαι.

(٤٠) See S. West in Heubeck, S. West, and J.B. Hainsworth, A Commentary on Homer s Odyssey I, Oxford, 1988, p. 74 ad Locum.

(٤١) Od. 23. 350- 3.

(٤٢) Od. 4. 24.

"يا زوجتي نحن لم نأت بعد إلى نهاية كل عنائنا، فهناك
ما يزال عناء كبير طويل وشاق لا حد له يجب القيام به
فيما بعد، ويجب أن أتمه حتى نهايته" (٤٣).

إن المقصود بالـ (ἄεθλος) هذه المرة هو رحلة أوديسيوس المستقبلية والمجداف على عاتقه إلى بلد الرجال الذين لا يعرفون البحر، ولا يأكلون اللحوم المحفوظة بالملح، تلك التي تنبأ بها تيريسياس في العالم السفلي. وهنا نجد أن الفارق بين معاناته ومعاناة الآخرين تكمن أولاً في الحقيقة القائلة بأن عناء أوديسيوس الأخير ليس مفروضًا من ذاته على ذاته، ولكنه أيضًا يتطوع لخدمة الصالح العام. ومن ناحية أخرى وقبل كل شيء نجد أن عناء أوديسيوس الأخير يعد إنجازًا رائدًا في حياته بما يضمن له المكافأة المناسبة. كما أنه وطبقًا لنبوءة تيريسياس فإن أوديسيوس عندما ينجز هذه المهمة سوف يكون قادرًا على العودة إلى وطنه، وحيث سيعيش سعيدًا ويعمر طويلاً، والذي يأتي على هذا النحو:

θάνατος δέ τοι ἐξ ἁλὸς αὐτῷ
ἀβληχρὸς μάλα τοῖος ἐλεύσεται, ὅς κέ σε πέφνῃ 135
γήρᾳ ὑπὸ λιπαρῷ ἀρημένον· ἀμφὶ δὲ λαοὶ
ὄλβιοι ἔσσονται. τὰ δέ τοι νημερτέα εἴρω.

"ومن البحر سيأتي حتفك، وسوف يكون أرق الميتات،
وسوف تنتهي حياتك، وأنت ناعم بالعمر الطويل، وستعيش
القبيلة في سعادة من حولك" (٤٤).

وهذا الوعد يعد إشارة واضحة للحقيقة التي تتجلى في أن الأوديسية لم تدرك المفهوم الشائع عن البطولة مثلما أشرنا في البداية، ولكنها أيضًا تصوغ بطلها عمدًا كي يلائم هذا المفهوم.

وبالعودة إلى أخيليوس نجد أنه كان مقدرًا لهذا البطل أن يموت شابًا، وعلى الرغم من ذلك لم يصفه هوميروس بمصطلحات "المعاناة"، إلا أنه ابتدع له تعبير (πολύτλας δῖος Ἀχιλλεύς) "أخيليوس المؤله الذي تحمل كثيرًا". وهذا يعود بنا إلى تلك الملحوظة الخاصة بأوديسيوس والتي أولاها (Walter Burket) اهتمامًا كبيرًا؛ إذ

(٤٣) Od. 23. 243. 50
(٤٤) Od. 11. 134- 7; cf. 23. 281- 4.

يقـول: "إنـه الاسـتثناء، ولـيس القاعدة، لهؤلاء الذين سقطوا في المعركة كي يلقوا شرف الـبطولة"(٤٥). وهـذا أيضًا ما يتماشى تمامًا مع التقليد الإغريقي القديم، الذي يتجلى في قصة هيرودوتوس عن ثيلوس الأثيني، وهو أن أعلى درجات الشرف التي تمنح لفرد عند موته على نحو شريف في أرض المعركة هو أن يدفن أمام الجماهير في مكان المعركة، وهذا ما يرد في رد سولون على الملك كرويسوس بشأن تيللوس على النحو التالي:

γενομένης γὰρ Ἀθηναίοισι μάχης πρὸς τοὺς ἀστυγείτονας ἐν Ἐλευσῖνι, βοηθήσας καὶ τροπὴν ποιήσας τῶν πολεμίων ἀπέθανε κάλλιστα, καί μιν Ἀθηναῖοι δημοσίῃ τε ἔθαψαν αὐτοῦ τῇ περ ἔπεσε καὶ ἐτίμησαν μεγάλως."

"ذلك أنه، في المعركة بين الأثينيين وجيرانهم في إليوسيس قد هاجم الأعداء وهزمهم، ثمَّ مات ميتةً في منتهى النبالة؛ ولقد دفنه الأثينيون في حضور الجميع حيث سقط، ومنحوه مجدًا عظيمًا" (٤٦).

وكذلك أيضًا الإسكندر سليل المحاربين، والذي أعجب بأخيلليوس، فكان يصر على تحمل تـبعات فـتوحاته، هـذا بالإضافة إلى أنه صاغ إنجازاته على نحو واعٍ، كي تلائم إنجازات هيراقليس، ونظر إلى ذلك على أنه شرط مسبق لنيل مجده المستقبلي(٤٧).

وفي هذا الصدد يبدو من الأهمية بمكان أن الموت المبكر كان يعامل في الفكر الإغريقي بوجه عام على أنه نوع من البركة، ونستشهد هنا بقول (Theognis):

Ἆ μάκαρ εὐδαίμων τε καὶ ὄλβιος, ὅστις ἄπειρος
ἄθλων εἰς Ἀίδου δῶμα μέλαν κατέβη,

"إنه لمبارك، ومحظوظ، وكله خيرات ذلك الذي ينزل إلى منزل
هاديس المظلم دون أن يمر بمعاناة" (٤٨).

وطـبقًا لما يورده ميمنيرموس (Mimnermus)، نجد أن آلهة الموت (ἡ κήρ) تمسك بقـدرين للـرجال، واحـد خاص "بكبر العمر المقيت"، والآخر خاص بـ"الموت"، وإنه لمن الأفضـل الموت في عمر الشباب، وذلك لتجنب المعاناة التي سوف تأتي إن عاجلاً أم آجلاً، لأنـه "لـيس هناك من أحد سوف يندم عليه زيوس بشدة" (٤٩). كما أن قصة كل من كليوبيس

---

(٤٥) Walter Burkert, Op. Cit., p. 235.
(٤٦) Hdt. 1.30- 4.
(٤٧) Arr. Anab. 5.26; cf. also 4. 15; 4. 29; 5. 25; 5.29; 6.24.
(٤٨) Theog. 1013- 14.
(٤٩) Mimn. 2- 15- 16; cf. Theog. 767- 8; Soph. O. C. 1224- 38.

(Cleobis) وبيتون (Biton) اللذان قضت عليهما هيرا بأن يموتا مبكرًا كبركة إلهية خاصة، تحمل شاهدًا على شيوع هذه الفكرة[٥٠].

إن هـذا الاتجاه نحو الموت المبكر يمكن أن يفهم بسهولة أكثر عندما نقابله بذلك الاعتقاد الشائع، الذي يرى أن الحياة البشرية ما هي إلا سلسلة طويلة من الكروب والانفراجات. ولقد سبقنا في توضيح ذلك كل من بنداريوس وهيرودوتوس وسوفوكليس. ويمكننا أيضًا أن نسترشد على سبيل المثال بتلك الحكاية الهوميرية في الكتاب الرابع والعشرين من الإلياذة، والتي تدور حول جرات زيوس في قصر إخيلليوس والتي تبدأ بهذه الكلمات:

ὣς γὰρ ἐπεκλώσαντο θεοὶ δειλοῖσι βροτοῖσι,
ζώειν ἀχνυμένους· αὐτοὶ δέ τ' ἀκηδέες εἰσί.

"هذا هو القدر الذي قضت به الآلهة على الرجال
التعساء، وهو أنهم يجب أن يعيشوا في عذاب" [٥١].

وعلى أية حال، فإنه يبدو أن هناك نوعين فقط من العطايا التي يمكن لزيوس أن يهبهما للبشر الفانين: وهما الخير ممزوجًا بالشر، أو الشر الخالص لكي تكون الحياة الممزوج فيها الشر والخير مدركة بأنها حياة بشرية عادية، وأكثر ما يوضح هذا الافتراض هو قصة الرجلين المسنين بريامو وبيليوس"[٥٢].

وهنا يجب القول بأن هذا ليس أوان الحديث عن أن الإنسان يجب أن يحاول الهرب من المعاناة عن طريق الانتحار مثلاً، أو أنه يجب عليه قبول مصيره على نحو سلبي دون أن يحاول صنع شيء من أجله. ولذا نجد أن شخصية هيراقليس عند يوربيديس بعد أن وجد نفسه وقد قتل زوجته وأطفاله كرهًا يقدم على فكرة الانتحار، إلا أننا نتوصل إلى أن هذا سوف يكون تصرف الجبان، وذلك لأن "الرجل الذي لا يتجلد تحت وطأة القدر لن يتحمل وطأة سلاح رجل آخر" [٥٣]. كما أن هيراقليس عند باخيليديس (Bacchylides) يعلق على قصة حياة ميلياجير (Meleager) الحزينة التي تروى له في العالم السفلي في سياق مشابه بأنه: "بالنسبة للبشر سوف يكون من الأحسن ألا يولدوا أو ينظروا إلى ضوء الشمس. لكن هؤلاء

(٥٠) انظر: Hdt. 1.31; 7- 46. 3- 4.
(٥١) IL. 24- 525- 6.
(٥٢) Od. 11. 38.
(٥٣) Eur. H. F. 1349- 60; cf. 1347- 8.

الذين يحزنون من أجل هذا لن يستطيعوا التصرف، ولذا يجب على المرء أن يتحدث عما هو بمقدوره أن يفعله" (٥٤).

والواقع أن الحياة مملوءة بالمعاناة والمشقات للوصول إلى إنجاز أسمى، ولكي نصنع من هذا العناء حياةً مجيدةً. كما أننا نجد هيراقليس المكرم عند سوفوكليس يخاطب صديقه فيلوكتيتيس (Philoctetes) بنفس هذه الكلمات عندما كان عالقًا تحت وطأة عذاب القنوط، وهي كلمات توجز كل شيء يدور عن الحياة البطولية(٥٥).

ومما لا شك فيه أن هذا هو نوع الحياة التي من الممكن أن يضرب بها المثل في أعمال هوميروس فيما يختص بأوديسيوس. وكما هو واضح فيما يتعلق بالبطل الإلياذي، والذي يضرب به المثل في الكيفية التي يموت بها المرؤ، نجد أن تجارب حياة أوديسيوس كلها توضح الكيفية التي يجب على المرء أن يحيا عليها. لقد كان أوديسيوس دنيوياً وواقعياً، ولقد قدر على اجتياز كل الاختبارات التي وضعتها الحياة في طريقه. فقد قام بالهروب من كهف الكيكلوبس، وامتنع عن أكل لحوم الماشية المقدسة الخاصة بهيليوس، وتحمل الإذلال الشديد في حياته كشحاذ في وطنه. وعلاوةً على ذلك، فليس من المعقول أن نقول أن أوديسيوس كان قادرًا على التغلب على كل أمر واجهته به الحياة، ذلك أن كونه دنيويًا وواقعيًا (وهذه الميزة يشاركه فيها هيراقليس)، تقود إلى أن ذلك لا يعني سوى أنه من البشر. وإذا ما أثيرت قضية الاختيار، فإننا نجد أنه على الرغم من أن أخيلليس كان عليه أن يختار بين الحياة الطويلة أو الموت المبكر، فإن أوديسيوس أيضًا كان عليه أن يختار بين الحياة البشرية وبين الخلود الذي قدمه إليه كاليبسو. وفي توافق تام مع الأخلاقيات الإغريقية الشائعة، نجد أن أوديسيوس قد تم تقديمه على أنه راضٍ بقدره ويفضل حياة الخلود حتى لو كانت مليئة بالمعاناة والمشقة(٥٦). وهو بذلك يثبت أنه بطل ضارب للمثل مثل الأبطال الإغريق(٥٧).

لقد رأينا أن ميمنيرموس (Mimnermus) قد قدم حالتين لأقدار الموت من خلال آلهة الموت (ἥ κήρ) وهما الموت المبكر والموت في الكبر، وفي الإلياذة نجد أن أخيلليوس يقف أمام هاتين الحالتين، فإما أن يموت مبكرًا في المعركة ويصاحبه المجد الأبدي، أو أن يموت في سلام، ولكن دون مجد، ويكون في أرذل عمره، إلا أننا نجده أخيرًا يختار الحالة الأولى. ومن ناحية أخرى نجد أن هذا الاختيار لأخيلليوس يختلف في الأوديسية، وذلك أنه عندما يلتقي

---

(٥٤) Bacchyl. 5. 150. 2.

(٥٥) Soph. Phil. 1422.

(٥٦) Od. 5. 202- 24; 7. 254- 8; 23. 333- 7; cf- 9. 25- 36.

(٥٧) Stanford, Op. Cit., pp. 96ff. and 121ff.

شبح أخيلليوس في العالم السفلي مع أوديسيوس، فإن أوديسيوس يخبره أنه أي أخيلليوس يختلف عنه، ذلك أن حياة أوديسيوس مليئة بالأحزان، أما أخيلليوس فهو أكثر الناس مباركة؛ لأنه حتى عندما كان لا يزال على قيد الحياة، كرمه الآخيين بشكل رفعه إلى درجة الألوهية، وبعد موته أيضًا كان يحظى بمنزلة الأمراء بين الأموات، إلا أن رد أخيلليوس على أوديسيوس جاء مختلفًا على النحو التالي:

Μὴ δή μοι θάνατόν γε παραύδα, φαίδιμ' Ὀδυσσεῦ.
βουλοίμην κ' ἐπάρουρος ἐὼν θητευέμεν ἄλλῳ,
ἀνδρὶ παρ' ἀκλήρῳ, ᾧ μὴ βίοτος πολὺς εἴη,
ἢ πᾶσιν νεκύεσσι καταφθιμένοισιν ἀνάσσειν.

"لا، لا تتكلم معي عن الموت على أنه مريح، يا أوديسيوس العظيم إنني أفضل أن أحيا على الأرض كعبد لأي أحد آخر، على أن أكون رجلاً لا أرض له ولا معيشة رغدة، وأن أكون متميزًا بين الأموات الذين رحلوا" (٥٨).

إن الفعل (θητεύω) الذي يعني "يكون عبدًا أو عاملاً" الذي استخدمه أخيلليوس هنا، هونفسه الفعل الذي يدل على المعاناة التي تكبدها كل من أبوللون وبوسيدون عندما كانا يخدمان الملك الطروادي لاوميدون، وكما رأينا من قبل أن هذا الفعل من الممكن أن يكون مرادفًا للفعل (ἀθλεύω) الذي يعني "يعمل أو يكدح"، كما نلاحظ أيضًا أن دافع خدمة المزء لمن هم أقل منه منزلةً يعد مرتبطًا بشدة بفكرة عمل ومعاناة كل من هيراقليس وأوديسيوس. وهذا عادةً ما يفترض وجود اختيار ما بين الموت البطولي والحياة غير البطولية، ولكنه يكون أيضًا اختيار ما بين نوعين من البطولة. فبينما نجد شخصية إخيلليوس في الإلياذة تنسجم مع قواعد هذه القصيدة، إذ يختار الموت المبكر في المعركة والمجد الأبدي الذي يصاحب هذا الموت، إلا أن شخصية إخيلليوس في الأوديسية تفضل حياة المعاناة.

وعلى نحو مؤكد فإنه لا الإلياذة ولا الأوديسية تقومان بعمل أي فصل أيًا كان في نوع الأبدية الذي تفترضه عبادة البطل. كما أنه ليس هذا هو وقت الحديث عن الأفكار المصاحبة لهذه الظاهرة؛ إذ أنها كانت غير مألوفة لهوميروس نفسه، والحقيقة أنه لو أن التفسير الموجود بالأوديسية صحيح، فلا بد أن نفترض أن فكرة حياة المعاناة تستوجب أن يتم منح مكافأة مناسبة في مقابلها، وذلك يميز الاتجاه الإغريقي الشائع تجاه ظاهرة عبادة الأبطال وتقديسهم، وهذا على الأقل كان مبكرًا بكورة الأوديسية الهوميرية، كما أن هذا لا يجعلنا نقول بالضرورة

(٥٨) Od. 11. 487- 91.

أن هذه الفكرة كانت موجودةً منذ بداية تراث الأوديسية، فاللقب البديل وهو (πολύμητις) الذي يعني "ذوي الحيل العديدة" يتم مطابقته على أوديسيوس أكثر من اللقب (πολύτλας) الذي يعني "شديد التحمل"، هذا على الرغم من عدم القول بحقيقة أن مغامرات أوديسيوس كلها لم تكن تلائم نموذج المعاناة. ومن ناحية أخرى نجد أن هذا هو التفسير الكلي الذي خضعت له كـــل هذه المغامرات في الأوديسية، ولقد رأينا أن هذا التفسير يعد متناغمًا مع ما تضمنته كل تجـــارب حـــياة أوديسيوس، بينما نجد أن لقاءاته مع كل من أخيلليوس وهيراقليس في العالم السفلي كانت تحمل هذا المقصد على نحو واضح، وتسلم بنفس هذه الرسالة.